متطلبات تجاوز مأزقنا العربية

علماء نفس وأطباء روح .. وعلماء القانون والسياسة

غسان سلامة *

■ من يسمع هذه الايام ما يقوله بعض الكويتيين في العرب والعروبة، يفاجأ، ويتعجب، إن لم يصدم تماماً. ومن جملة ما سمعناه منهم اتهامهم للعرب بانهم مصدر البلاء على الكويت في القديم والحديث، والماضي والحاضر، مما يبرر ضرورة درء الأخطار الناتجة عن مجاورة الكويت لهم.

غير ان هذا الكلام ليس جديداً البتة، ولو انه مستجد في فم بعض الكويتيين. فغداة كل من الهزائم العربية مع «اسرائيل»، صعّد عدد من الفلسطينيين من قدحهم بالعرب والعروبة، الى حد اتهام كل عربي من خارج فلسطين بالتسبب بالنكبة الجديدة، وبتناسي أصول الاخوة والتضامن ان لم يكن بالتواطؤ التام مع العدو ضد الفلسطينيين.

وعندما اندلعت حرب لبنان سنة ١٩٧٥، تسابق اللبنانيون لوضع وزر ماساتهم على أكتاف العرب. فهم، جماعة، تدخلوا في شؤون لبنان الداخلية، وهم مجتمعين استفزوا اسرائيل ثم جعلوها تستفرد بالساحة اللبنانية، تسرح فيها وتمرح، بينما هرب العرب من المواجهة بعدما تسببوا في حصولها. ومازال غير لبناني اليوم يشتم العرب مجتمعين، إن لاستمرار تدخلهم في شؤونه الوطنية، أو لاحجامهم عن اسعاف اقتصاد لبنان المنهار، أو لاستنكافهم عن اعادة تعمير ما تسببوا في تدميره.

واذكر ان كلاماً كهذا سمعته لعشر سنوات خلت من عدد من العراقيين كان بينهم المرحوم صديق شنشل. كان العراق قد تورط في حربه مع ايران، وبدت تلك الحرب أطول عمراً مما تصورته بغداد آنذاك، والنصر فيها أصعب منالا، وثمن الاستمرار فيها أثقل وزناً والقدرة على وضع حد مقبول لها من رابع المستحيلات. فراح عدد من العراقيين يصرخون بأعلى الصوت متهمين العرب بالتخلي عنهم ساعة الحاجة لعونهم، وبتركهم يواجهون ايران بمفردهم، بل وبالتواطؤ مع طهران ضد بغداد، وبمسايرة ايران على حساب العراق.

قبلها بقليل، نذكر جميعا جو القاهرة غداة زيارة الرئيس السادات للقدس المحتلة. كان السادات، وجلّ الصحافة المصرية معه، يشتمون العرب، حكومات وشعوباً، بلداناً وافراداً، اقطاراً وجماعة وجامعة ومجموعة. وقرأنا آنذاك لمن كان حتى الأمس القريب قوميا عربيا صنديداً، ومدافعاً شرساً عن العرب والعروبة، ما معناه ان مآسي مصر ما كانت لولا العرب، وان انحطاط مصر مصدره تآخيها مع العرب، ناكري الجميل، بل راينا ملامح مصر تتغير لتدخل فيها عناصر الفرعونية، وأسباب الاهتمام بافريقيا السوداء بل حلم الالتحاق بأوروبا.

وحين تلبدت مؤخرا سماء المغرب العربي، أخبرنا غير مسؤول مغاربي، وعدد من المثقفين المغاربة أيضا، ان بلاء المغرب مصدره المشرق. فالمغرب في نظرهم معلّق بين عالمين: عالم الحضارة والديموقراطية الاوروبيتين وعالم الاستبداد والتخلف المشرقيين. وما جنوح الجزائريين في هذا المنطق نحو الاصولية الاسلامية الا صورة لانزلاقهم نحو الخيار الأسوأ، خيار التقارب مع المشرق العربي، بدل الالتصاق بالغرب الأوروبي.

أعجب فعلا لمقدرة كل من هؤلاء على الخروج السهل من جلدته، ولغته، وثقافته وانتمائه، لينظر للعرب وكانه ليس منهم، وكانه لم يكن في السابق منهم، وكأنه قادر في المستقبل على تصور ذاته من دونهم. وأعجب لهذه الثنائية، المبنية على خلل نفسي ما، التي تجعل العربي يختار العروبة حين يرتاح اليها، وينبذها عندما يعاب بالم يعتقد بانها سببه. وأعجب أيضا لتلك المقدرة على التبسيط والتسطيح، التي تجعل المتألم بين العرب يتهم كل الآخرين بالظلم، والخيانة، غير متنبه الى ان العرب على الف سياسة وألف رأي والف هوى، بينما هو يصر على النظر اليهم وكانهم ما تضامنوا يوما الا ضده، وما اتفقوا يوما الا على حسابه.

لكني أعجب أيضا من صنوف القوميين الصنميين الذين لا يسمعون صرخة الألم هذه، ولا يتنبهون لتكرارها المضني من فلسطين الى لبنان، ومن الكويت الى العراق، ومن اليمن الى مصر ومن المشرق الى المغرب. فالصرخة هذه تؤرقهم لو تنصتوا اليها، وتزعجهم لو استمعوا اليها، وتقضّ مضاجعهم لو حاولوا فهم أسبابها. فهذا الكفر بالعروبة الذي نراه يتنقل من بلد الى آخر، نبذ شعبي عميق لما شكلته العروبة السياسية في نصف القرن المنصرم من شعارات وسياسات وممارسات بررت عدوان العربي على العربي، وشغلت

> محاولات نبذ الهوية العربية هي اعلان حرب من الفرد على ذاته ومن الجماعة على نفسها

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس

الحكومات بمحاولات التآمر على استقرار الحكومات الأخرى، وهدرت الامكانات الكبرى التي لا تعوّض في التنافس بين الحكام، والتخاصم بين الحكومات بل والتنافر الذليل بين المحكومين.

خطأ في الحالتين

لذا يخطىء كل كويتي وعراقي ومصري ولبناني، يخطىء كل عربي إن اعتقد بأن مصيره خارج العروبة، ويخطىء كل قومي، عروبي، مدفوع بالحماسة العمياء أو بالاسترزاق السهل، إن اعتقد بأن استيلاءه على شعارات العروبة مناعة له أمام أي محاسبة وأي نقد.

الأول مخطىء في بحثه عن الخلاص بمفرده في عالم لن يقوى فيه على الاستمرار الا من استطاع ان يدخل في كتلة سياسية ـ اقتصادية متينة. فلقد مال عدد الدول المستقلة للتزايد المضطرد في القرن العشرين حتى التخمة. ولكن القرن السابق كان قد شهد، على العكس، تناقصا في عدد الدول السيّدة إن بفضل توحّد القوميات (مثل المانيا وايطاليا) أو بسبب التوسع الاستعماري. ومن الواضح اننا ندخل اليوم من جديد مرحلة حرجة تتفكك فيها بعض الامبراطوريات الهرمة (الروسية) وبعض الدول المصطنعة جدا (مثل يوغوسلافيا)، بينما تتجه دول أخرى نحو التوحد (المانيا، اليمن، كوريا) أو نحو التكتل في مجموعات تتجاوز القوميات الضيقة حتى ولو كانت متينة ثابتة (مثل اتفاقيات التوحد الاوروبي، او معاهدة الشمال الأميركي). من هنا، فان اعتبار ما هو قائم الآن وكأنه نهائي، أزلي، هو من باب التمني. فالأمور الى تغيّر، ولن يقوى على مواجهة الاستتباع الجديد الا تلك الدول التي تعرف كيف تجمع قواها، وتوحد سوقها، وتتكامل وتتكافل.

والثاني مخطىء لأنه لا يجد بديلا عن الأوضاع القائمة الا بالاصرار على فلسفة التوحد القومي المنقولة بانتشار وجهل وتسرّع عن مفكري أوروبا في القرن الماضي. وهو مخطىء لأنه لا يعترف بأن للوطنيات المحلية في الكويت ولبنان وتونس وغيرها منطقها، وبأن هناك من أعتنقها وتماهى معها واستعدّ للدفاع عنها. وهو مخطىء في اعتقاده بأن التوحد ممكن على اساس التغني بالماضي أو انه ممكن فرضه قسرا، من دون اشراك الناس في صنعه، او انه ممكن في الحال دونما الحاجة الى مشاريع طويلة الأمد، تدرّجية، ممرحلة، من التنسيق، فالتكامل، فالاندماج.

أسرى أزمتين

هنا تكمن مأساة العرب اليوم. فهم أسرى أزمتين في الآن معاً: ازمة الدولة الوطنية العاجزة عن الخلاص بمفردها، عن الدفاع عن حدودها، عن تكريس شرعيتها، عن الفوز باستقلالها في عالم متغير، وأزمة الفكرة العربية كبديل للدول القائمة، بسبب استيلاء عدد من الاحزاب والعصابات على هذه الفكرة، واستعمالها كشعارات جوفاء للتوسع السهل، والتدخل غير المحدود، والمغامرات غير المحسوبة. هي أزمة الدولة، وأزمة بديلها الراهن في الآن معا. فلا المسكون بزمام الدول القائمة مقنعون في انعزاليتهم الخائفة، الهزيلة والمرضية، ولا الداعون للعروبة مقنعون في قوميتهم السطحية، البالية، المقتبسة بصورة بدائية عن تجارب اوروبية تجاوزتها أوروبا ذاتها.

هذه الأزمة المزدوجة تدفع بعض العرب للتمسك بهويتهم الوطنية تمسكا أعمى وكأنها نهاية أفقهم السياسي والحد الأعلى لولائهم، وتدفع بعض الآخرين للتوهم بأن الحدود الى زوال تلقائي، والكيانات الى غياب أكيد. وكان العرب عاجزون في هذه المرحلة عن التعايش الخلاق بين وطنيتهم المحلية المشروعة وبين انتمائهم العربي الثري، والمثري. وما يزيد الأزمة استفحالاً جنوح حزب ثالث للقول انه ليس من حل لهذا التزاوج التناقضي بين الوطني والعربي الا من خلال الدين، متناسين بدورهم ان جلّ التاريخ الاسلامي كان قائما على تعدد الدول الاسلامية لا على توحدها، وبأن وحدة المسلمين العقيدية لم تعنِ في التاريخ الحقيقي للشعوب الاسلامية توحّدا سياسيا مؤسسيا.

إن كنا أسرى أزمتين معاً، وان كانت الأصولية المعاصرة ليست دواء لأي منهما، فعلينا البحث الشجاع عن المخارج بعيداً عن ضوضاء الشعارات الشارعية الهيمنة، الانعزالية والقوموية والاصولية على السواء. ويقيني ان طريق الخروج من المأزق تبدأ بالاقرار الصعب بأن لكلٍ منا هويات سياسية متنوعة، لا هوية واحدة فحسب، وهي هويات تبدأ بالعائلي والقبلي والطائفي، وتضم الوطني والاقليمي، ولا ننسى القومي والديني. وهي هويات متراكمة، متداخلة، كل منها له منطقه، وكل منها جزء من تراث كل واحد منا، ومن ثرائه الروحي والفكري. بل ان كلا من الهويات هي نوع من الحماية للذات، يلجأ اليها الفرد حين تنتابه مشكلة، أو يشعر بالانفراد والعزلة.

وإن كان الأمر كذلك، فان محاولات تغليب هوية من هذه الهويات على الأخرى بهدف نبذها وقتلها والغائها هو نوع من الحرب التي يشنها الفرد على ذاته، وتقوم به الجماعة على نفسها. فالغاء أي من هذه المستويات هو افقار مبرمج للتراث، ونوع من الاستبداد الفكري الطفولي الذي يخفي في تضاعيفه مشاريع استبداد سياسي وتسلط. فمن يقول لك انك مصري وحسب يفقدك جزءا من شخصيتك، ومن يدعي ان هويتك المصرية عليها ان تذوب في كل قومي أو ديني لا يعرفك ولا هو يفقه تعلقك بوطن. اما الداعي إلى الغاء القبلية والطائفية والاقليمية وكأنها أمراض اجتماعية فحسب، وكأنها ليست جزءا من شخصية كل مواطن، فهو في الاجمال مثقف غير واع، لم يفهم من حضارة المجتمعات الصناعية الا ضرورة تقليدها الأعمى.

أما ان استمر العرب متعلقين كل بتلابيب عنصر من عناصر هويتهم السياسية المعقدة، مستلّينه سيفا ضد الآخرين باسم ضرورة الهوية الواحدة المجتزأة المستبدة، فاننا سنبقى، كما نحن حتى اليوم، منشغلين بالحروب على ذواتنا بدل الاهتمام بمواجهة اعدائنا، منكبين على استعداء بعضنا، بدل الانغماس في حل مشاكلنا. بل أكثر من ذلك، نكون ما انفككنا نعمّق انفصام الشخصية في كل واحد منا، بدلا من تنسيق مستويات هويتنا المعقدة والبحث الدؤوب عن شروط تعايشها وتآزرها.

لكل ما سبق، يخرج المراقب من تنوع نزاعات العرب واستمرارها وتكرارها، بل وتفاقمها، بنتيجة مفادها ان تجاوز مأزقنا يحتاج الى خبرات علماء نفس وأطباء روح بقدر حاجته الى علماء القانون والسياسة. ■■